يدي تعاندني

محمد سعيد صكار
mohammed_saggar@yahoo.fr

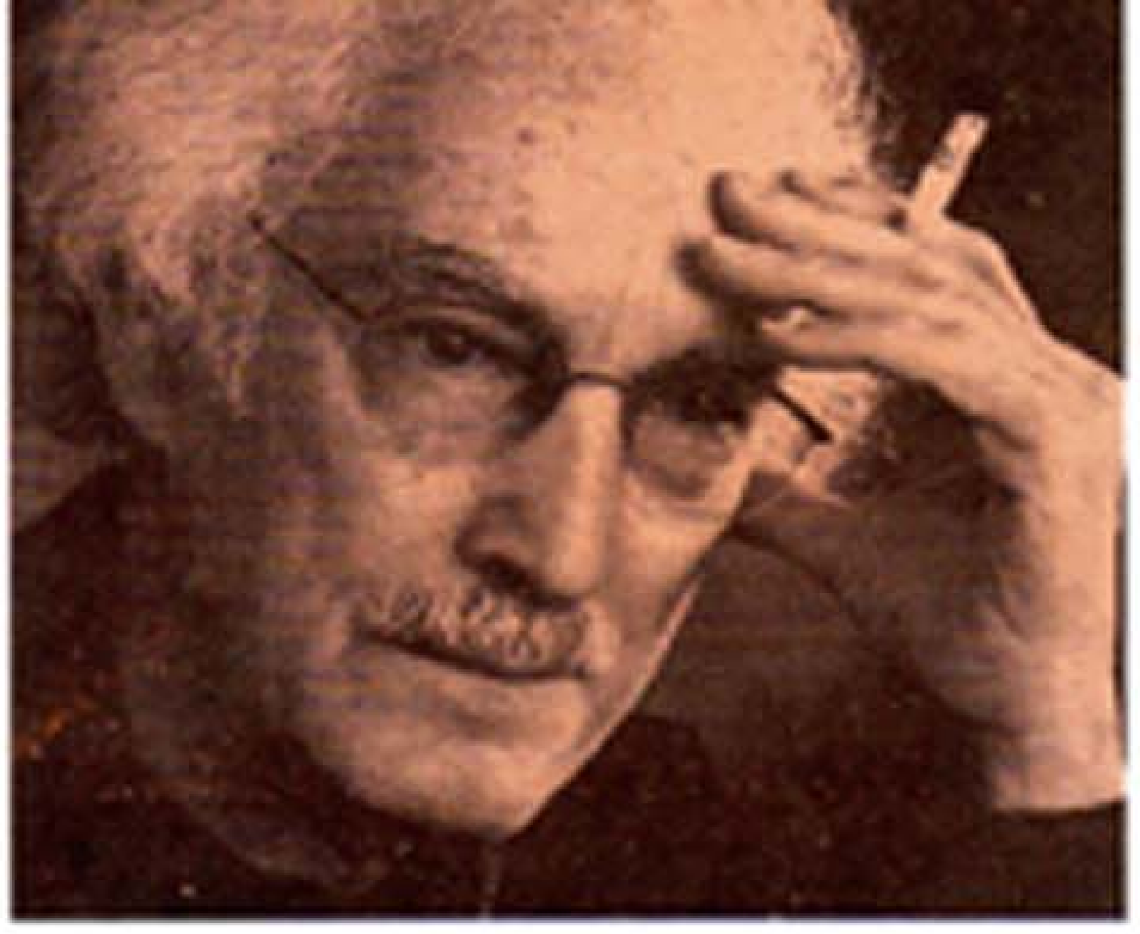

في لقاء حميم في مقهى (لوتيس) في شارع سان ميشيل بباريس، دارت أحاديث طويلة عن هموم الوطن، وذكريات متشعبة كنت أشترك فيها مع الأخ نوري عبد الرزاق عن ايام النضال في منتصف القرن الفائت، فنحن من جيل شهد وشارك، كل حسب رؤياه وطاقته، في احداث تلك الايام التي حفلت بحركات التحرر الوطني والمد التقدمي والحركات السياسية الفاعلة في تلك الايام، والتي لم يبق لنا منها، مع الأسف، غير طراوة الذكرى، وسلامة الموقف، وإن كانت نتائجها غير ما كنا نؤمل، ولكننا لم نكن نادمين على ما رافق توجهاتنا من إخفاقات لا يد لنا فيها، وإنما كانت في إطار دورة التاريخ الذي يصفي وينتقي ما يريد من مصائر البشر.

وفي سياق الحديث المتشعب الطويل الذي نعمنا به، حدثت إخواني ببعض الأحاديث التي تدخل ضمن التجارب الشخصية مما كان له وقع لديهم، فأقترح علي الأخ سعد عبدالرزاق ان أدون إحداهما لمجلة (نون)، وهي أنني عند قصف العراق في إثر دخول الكويت، كنت شديد التوتر والانفعال والمتابعة لما يجري، فكانت جريدة الحياة وجريدة اللوموند والهيرالد تريبيون، وقناة السي ان ان ومحطات الاذاعة هنا وهناك هي اهتماماتي الأساسية اليومية مصحوبة بقلق شديد وتوتر لا يخف ولا ينتهي، وأحسب ان ذلك كان حال الكثير من العراقيين في كل مكان.

على أنني لاحظت بعد أيام ان إصبعي الوسطى التي كانت تستند عليها القصبة عندما اخط بدأت تخدر، فلم أعر ذلك اهتماما، ولكن ذلك الخدر بدأ يسري الى الاصابع كلها، وتمادى فأمتد الى الرسغ فالساعد فالزند، ثم انتقل الى الكتف، وتجاوز فشمل نصف صدري الأيمن بكامله، بحيث لم أعد قادرا على رفع يدي الى خدي، كان اقصى ما تصل اليه يدي هو الى الذقن، ولم يكن يخلو من تشنج وألم واضح، ولم أعد أستطيع أن أنفذ أو أنجز لوحة فنية لا في الخط ولا في الرسم، بمعنى آخر، أن وسيلة معيشتي قد توقفت فعلا لسببين، أولهما انحسار التعامل معي كعراقي، فأنا أتعامل مع مؤسسات معمارية عالمية تطلب مني إنجاز أعمال لها تسوقها الى بلداننا، وثانيهما خوفي من أن يكون ذلك الخدر معوقا لانتاجي الفني، إذ كنت أخشى أن أواصل تجاربي الخطية اليومية لئلا أكتشف ضعف يدي وعدم قدرتها على الأداء، وكنت أراجع وقتذاك خمسة أطباء متخصصين في فرنسا وألمانيا، ولم يفلح اي منهم في تشخيص حالتي وعلاجها، قال بعضهم إنها متأتية من دقة عملي في الزخرفة والتذهيب الذي يقتضي تركيزا ذهنيا ودقة في التنفيذ، وقال آخر أنها حالة تشنج عضلي تشبه ما يصيب لاعبي التنس، وقال ثالث قولا آخر، ولكن الحالة بقيت قائمة ولا علاج.

واستمر ذلك ستة أشهر بلا عمل ولا إنتاج وبتوتر نفسي وقلق متواصل.

طبيب فرنسي خارج باريس، حيث أقيم، ربط الموضوع بعد ان عرف أنني عراقي وأن وطني يقصف، بالحالة النفسية المتأتية من القلق والتوتر وانعكاساتها على اداء بعض أعضاء الجسد، فنصحني، بل أمرني، بصرف النظر نهائيا عن متابعة الأخبار، وكان من أمر عائلتي ان تحول قنوات الأخبار حالما ادخل البيت الى برامج اخرى، وانقطعت أنا عن قراءة الصحف والحديث عما يجري.

ثم بدأ الخدر والألم يخف شيئا فشيئا. ولكنني لم أغامر بتناول القصبة ومحاولة الخط خوفا من اكتشاف ضعف يدي وعدم قدرتها على العمل، وأنا المولع بأنتاج الأعمال الدقيقة.

وهكذا مرت سنتان بلا عمل، وبلا أدنى مورد يغطي النفقات الحياتية.

في هذا الوقت الحرج، والحالة النفسية المتردية، تلقيت نداءا تلفونيا من أحد المهندسين البريطانيين يسألني ان كنت أستطيع أن أشارك معه في مشروع هندسي.

طار قلبي من الفرح، فها هو باب الرزق ينفتح، ولكن هل بمقدوري ان أستجيب؟

قلت لمحدثي، سأراجع التزاماتي وأخبرك.

وفي الواقع لم يكن لدي أي التزام، ولكنني خفت من يدي.

قال أنه سيبعث إلي ببطاقة السفر لأكون عنده في لندن في اليوم التالي.

قلت له سأجيبك بعد ساعتين، وكنت أنوي أن أجرب يدي التي لم استعملها منذ سنتين.

وما أن أغلقت السماعة حتى هرعت الى قصباتي وحبري واوراقي فأعددتها للعمل وأنا في خوف شديد من ان تخذلني يدي، وكانت المفاجأة خارقة عندما سحبت القصبة على الورق وإذا بالحرف يأتي نقيا وقويا كما عهدته.

لم اصدق، فأعدت خط الحرف وأتبعته بحرف آخر، وإذا بسلامياتي وأصابعي وساعدي سخية كما لم أتوقع فقررت قبول العرض.

هنا طلعت مشكلة اخرى، فأنا لا أستطيع السفر الى بريطانيا بجواز سفري العراقي الذي مازلت أحتفظ به الى هذه الساعة، لأن التأشيرة يومذاك كانت تتطلب سنة كاملة.

قال الرجل إنه سيأتي بنفسه لمقابلتي في باريس.

في اليوم التالي وصل الرجل، وتفاوضنا واتفقنا، وتغدينا معا، وغادر بعد اربع ساعات بعد شهرين تم إنجاز المشروع على أحسن وجه، وعادت يدي الى طبيعتها.

الآن، أنا خائف أن تعود يدي الى حساسيتها وعنادها، فأحداث الوطن تهز الجسد كله، ولا عاصم إلا الله.